الفصل الرابع:

١١ سبتمبر.. والمخابرات البريطانية!!

obeikandl.com

كشفت أحداث ١١ سبتمبر عن احتمال بوجود صلة - لم تتأكد أبداً - بين بغداد ومحمد عطا قائد المجموعة التي ارتكبت تلك الأحداث . . وكان من شأنه إثبات ذلك تعديل أمور كثيرة خلال مرحلة الإعداد للمواجهة العسكرية مع بغداد . ذلك أن واشنطن أكدت مراراً وجود صلة بين النظام العراقي والمنظمات الإرهابية . . وسعت إلى استخدام تلك الحجة للحصول على دعم دول أوروبية غربية . . ودول مؤثرة أخرى . . لشن الحرب ضد العراق . إلا أنها عجزت دائماً عن أن ترد على السؤال الذي وجهته لها تلك الدول بإصدار:

حرب المخابرات في بريطانيا:

وقبل أيام نشرت جريدة نيويورك تايمز القصة الكاملة لوقائع ضياع الدليل الذي يثبت أن محمد عطا التقى بالدبلوماسي العراقي أحمد خليل العاني في سفارة بغداد بمدينة براج . . وهي قصة تكشف الكثير مما دار في حرب المخابرات التي سبقت حرب المدافع . وتعود بنا القصة إلى ما حدث عقب انهيار النظام الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٨٩فقد ترددت الحكومة الجديدة حول ما ينبغي عمله بشأن مكتب مكافحة الإرهاب في جهاز المخابرات الذي ورثته عن النظام الشيوعي المنهار . فبينما قال بعض مسؤولي النظام الجديد: إنه يتعين حل المكتب وإعادة تشكيله من عناصر جديدة وذلك ضمن عملية إعادة بناء المخابرات التشيكية . . فإن آخرين اعترضوا على ذلك . وفسر المعترضون رأيهم بأن هناك عدداً من مكاتب المخابرات القديمة يتعين الإبقاء عليها بسبب طبيعتها الخاصة . فقد أشرف ضباط هذه المكاتب على تكوين علاقات بعملاء في مواقع مختلفة . . ومن المحتم أن يؤدي فصل هؤلاء الضباط من الخدمة إلى ضياع أجزاء واسعة من شبكة العملاء التي تكونت عبر تراكم عمل مكثف خلال عقود من الزمن .

ووافقت القيادة التشيكية الجديدة على هذا الرأي الأخير . . أي رأي

المعارضين . . وصدر قرار بالإبقاء على عدد من أفرع جهاز المخابرات القديم مع تغيير توجهها . . فبدلاً من أن يكون الخط الناظم لهذه الأفرع هو مواجهة الغرب . . فإن عليها أن تتعاون بدلاً من ذلك مع خصوم الأمس .وما لبث ذلك القرار أن أثمر بصورة فورية .

أزمة طائرة بان - إم ١٠٣ (لوكيربي) :

فقد قدم مكتب مكافحة الإرهاب القديم - الجديد في المخابرات التشيكية معلومات ثمينة إلى المخابرات البريطانية حول تورط عملاء ليبيين في حادث تفجير طائرة بان - أم ١٠٣ فوق لوكيربي بإسكتلندا . . وبدأ المكتب ينسق مع الأجهزة الغربية نتائج عمل رجاله وعملائه في صفوف المنظمات الشرق أوسطية التي كانت في السابق تعتبر أن براج محطة صديقة مهمة تدعم عملياتها .

وبدا أن المخابرات البريطانية (M. I. 6) مهتمة بصفة خاصة بالمخابرات التشيكية الجديدة . فقد قدمت لندن منحاً تدريبية لعدد واسع من الضباط الجدد في الجهاز التشيكي . . وأرسلت خبراء للإشراف على إعادة هيكلته . وأفضى هذا إلى تحول ذلك الجهاز إلى مؤسسة تشبه من حيث هيكلها وأساليب عملها المخابرات البريطانية وليست المخابرات الأميركية . . رغم احتفاظها بعلاقات مفتوحة مع السي . آي .أيه .

حكاية الدبلوماسي العراقي جابر سليم :

إلا أن العلاقة بين الجهازين البريطاني والتشيكي تعرضت لانتكاسة مفاجئة في نهاية التسعينات بسبب واقعة محددة أدت إلى استياء بريطاني بالغ من مكتب مكافحة الإرهاب في براج . ففي ذلك الوقت كان رئيس محطة المخابرات البريطانية في العاصمة التشيكية كريس هوران يعمل على تجنيد دبلوماسي عراقي يدعى جابر سليم يحتل الموقع الثاني في سفارة بغداد ببراج .

كان لدى البريطانيين ما يفيد بأن جابر أبدى تبرمه من النظام العراقي خلال عدد من المناسبات . وأجرت المخابرات البريطانية مجموعة اختبارات أولية لمعرفة ما إذا كان بالإمكان تجنيد الدبلوماسي المتبرم . . وما لبث تقييم العملية أن برهن على وجود احتمال كبير بنجاحها . . وهكذا بدأ هوران ورجاله تنفيذها في براج .

كان من المنطقي أن يحدث ذلك بالتنسيق مع المخابرات التشيكية . . إذ يتعين مراقبة جابر خلال تحركاته في براج . . وقال هوران إن أهل المدينة أدرى بشعابها فضلاً عن أنهم محل ثقة بحكم العلاقات الخاصة التي تربط الجهاز التشيكي بنظيره البريطاني . . وهكذا فقد قام الضابط البريطاني بإبلاغ التشيكيين بطلبه بوضع مراقبة خاصة على الدبلوماسي العراقي .

وجاءت التقارير التشيكية لتؤكد أن استهداف جابر كان له ما يبرره . . فقد تأكد أنه لا يكف عن انتقاد بغداد وسياساتها . . وقررت لندن أن الموعد قد أزف بتجنيد الدبلوماسي العراقي . . وإبلاغه بأن يكف عن انتقاد السلطات العراقية حتى لا يلفت الأنظار . . وأن يزود المخابرات البريطانية بما لديه من معلومات أولاً بأول باستثمار موقعه الدبلوماسي المؤثر .

جابر في ألمانيا :

وحين بدأ رجال هوران في التحرك نحو جابر اختفى الدبلوماسي العراقي فجأة من براج . . بل ومن تشيكوسلوفاكيا كلها . كان الأمر محيراً . . إذ لماذا اختفى جابر في هذا التوقيت بالذات؟ ثم كيف أفلت من مراقبة المخابرات التشيكية هو وزوجته وأولاده الستة؟ إنها أسرة كبيرة . . والمفترض أن التشيكيين - استجابة لطلب بريطاني مسبق - يراقبون الرجل على مدار الـ ٢٤ ساعة . كيف أنهم يقولون لهران إنهم لا يعرفون أين ذهب جابر سليم وأولاده؟

وفيما كان البريطانيون يحكون رؤوسهم في محاولة لحل لغز اختفاء جابر

وأسرته . . تحت أعين المخابرات التشيكية . . صدر بيان مقتضب من وزارة الخارجية الألمانية يعلن أن دبلوماسياً عراقياً وصل إلى العاصمة الألمانية مع أسرته وطلب اللجوء السياسي ، وكان اسم ذلك الدبلوماسي جابر سليم .

صدمة لندن :

كانت مفاجأة حقيقية للندن ذلك أن جابر قد يكشف أسراراً هامة تتعلق بما حدث . . ولكنه فقد أي قيمة مستقبلية . فقد كانت خطة (M. I. 6) هي تحويل جابر إلى مصدر دائم للمعلومات . . خاصة وأن عراقيين كثيرين كانوا يتوقعون له مواصلة الترقي حتى الوصول إلى موقع حساس في وزارة الخارجية العراقية . أما الآن . . وبعد أن طلب الدبلوماسي اللجوء في المانيا . . فقد تقلصت مكاسب العملية بأكملها إلى حد بعيد .

تسوية الحسابات :

وقابل ضباط بريطانيون جابر سليم في منزل بأحد ضواحي برلين لاستجوابه عما بجعبته من معلومات لقطف ما يمكن اقتطافه من ثمار بعد أن ضاعت الثمار الأكبر التي أملوا في جنيها . . ثم استداروا بعد ذلك نحو المخابرات التشيكية لتسوية الحسابات حول ذلك التخبط غير المفهوم .

أخطاء لا تغتفر :

بدأ ذلك بإرسال مذكرة شديدة اللهجة إلى التشيكيين حول مسلسل الأخطاء الذي لا يغتفر الذي ارتكبوه في عملية جابر سليم . . ثم بإرسال مذكرة ثانية تطالب بإجراء تحقيق داخلي في الجهاز التشيكي لرصد ما إذا كانت هناك اختراقات لأسباب سياسية أو لأسباب ترجع إلى الفساد المالي . . وبإبلاغ لندن بنتائج التحقيق حيث إنه يهدد أمن أجهزة مخابرات صديقة تتعامل مع براج . . فضلاً عن ضرورة

معاقبة المسؤولين .

البريطانيون.. آخر من يعلمون :

وحين حاول البريطانيون فهم ما حدث بأنفسهم . . ودون انتظار نتائج التحقيق الذي طالبوا بإجرائه . . اكتشفوا أن جهاز المخابرات التشيكي يعاني من انقسامات داخلية حادة بين تكتلات مختلفة . فهناك تكتل العناصر القديمة التي خدمت أثناء حكم الشيوعيين . . وهناك تكتل البريطانيين . . أو الضباط الشباب الذين تلقوا تدريبهم في بريطانيا . . وهناك تكتل الفلوس . . إن ذلك الذي لا يحفل إلا بتحقيق أكبر مكاسب مالية ممكنة إما عن طريق المشاركة في عمليات الفساد الداخلي أو عن أي طريق آخر . . ثم هناك تكتلات إضافية تتبع مسؤولين بارزين في الحكومة . . كل له فريقه .

واستنتج البريطانيون أن إحدى الفرق المعادية لمجموعتهم داخل المخابرات التشيكية ساعدت جابر على انتهاج الطريق الذي انتهجه . . أي على الذهاب إلى المانيا قبل أن يطلب منه البريطانيون أن يعمل لحسابهم وأن يبقى مع ذلك في سفارة العراق ببراج . . أو يعود إلى بغداد . فقد كان الخيار الأفضل للدبلوماسي العراقي – من زاوية مصلحته الشخصية ومصلحة أسرته – أن يتجه إلى برلين بسرعة .

انحراف أخلاقي :

وحين ألح البريطانيون في طلب معاقبة المسئولين عما حدث في قصة جابر . . بداية من إفلاته من المراقبة وصولاً إلى أسباب الانقسامات الداخلية في الجهاز . . شعرت الجبهة المعادية لرجال (M. I. 6) في براج بأن البريطانيين يحاولون مهاجمتها وإجبارها على اتخاذ مواقف دفاعية . . فردت هذه الجبهة بتسريب خبر إلى الصحف التشيكية بأن هوران منحرف أخلاقياً . . وبأن هناك صوراً مشينة يمكن أن تثبت ذلك .وقررت لندن سحب هوران من براج بعد أن تهدأ الضجة . . إلا أن مثل هذه

الجراح لا تندمل بسرعة . . خاصة وان البريطانيين سيعرفون بعد ذلك ان خسارتهم لجابر سليم أدت إلى تخبط كبير في رصد دقائق اتصالات محمد عطا مع أحمد خليل العاني بعد ذلك بعام واحد . . وإلى فقدان مصدر ثمين للغاية داخل السفارة العراقية في براج .

تغيير رئيس جهاز المخابرات :

ونقلت الحكومة البريطانية إلى أعلى المستويات السياسية في براج تفاصيل ما حدث . . وملامح صورة ما يدور في المخابرات التشيكية من صراعات . . فتقرر نقل مدير تلك المخابرات كاريل فولترين من منصبه وتعيين جيري روزيك مدير جديد للمخابرات . إلا أن ذلك القرار أسفر بعد ذلك عن آثار عكسية تماما .

ذلك أن روزيك كان ينتمي إلى كتلة الفلوس . . أو هكذا يقول خصومه . . فهو ثري بحكم استرداد عائلته - التي كانت ثرية قبل حكم الشيوعيين - لممتلكاتها ومنها مبان في قلب العاصمة التشيكية . فضلاً عن ذلك فإنه لم يكن يحب البريطانيين كثيراً . . لا لشيء إلا لأنهم تمكنوا من تشكيل تكتل خاص بهم داخل الجهاز . ثم - بعد ذلك كله - فإن روزيك كان يكن كراهية شديدة لرئيس الوزراء وقتها ميلوس زيمان .

* * * * *

(لقاء محمد عطا . . والعاني) :

وميلوس زيمان اسم محير بحق في براج وخارجها . فهو شخص ناري المزاج . . يفتقد أي قدر من التروي الدبلوماسي . ويذكر له في هذا المجال أنه قال: إن ياسر عرفات يذكره بأدولف هتلر . ثم إن لزيمان علاقات قوية بدوائر المحافظين المتشددين في الولايات المتحدة وبريطانيا . وهو متهم دائماً بأنه يمكن أن يحتد في أي نقاش

فيقدم - كي يدعم وجهة نظره - معلومات يعلن أنها كاذبة .وهكذا احتدمت الخلافات مرة أخرى . روزيك ضد زيمن . . وزيمن ضد المخابرات . . خاصة وأن الجميع يعرفون أن الرجل يُعد كي يصبح رئيساً للبلاد بعد وفاة الرئيس هافل . . والمخابرات ضد بعضها البعض . . ووزارة الداخلية ضد الجميع . وفي هذا المناخ المضطرب يقول البعض : إن محمد عطا التقى مع العاني . . على الخط الجانبي لمباراة ساخنة لا علاقة للاثنين بها . . إذ يفترض أنهما كانا يعدان لمباراة أسخن . . في نيويورك وواشنطن . . أي في ١١ سبتمبر .

مجموعة لندن :

مجموعة لندن قالت : إن هناك معلومات كافية تشير إلى حدوث اللقاء . ففي صورة فوتوغرافية ملتقطة من بعيد للعاني بدا معه شخص يثبت التحليل الكمبيوتري أنه محمد عطا . واندفع زيمن لإبلاغ واشنطن ولندن بالخبر . . وحين طلبت المخابرات المركزية والمخابرات البريطانية من المخابرات التشيكية تقريراً حول الموضوع . . قرر روزيك أن يصفي حساباته مع زيمن . . وأن يجعله يتعرض لأكبر حرج ممكن أن يتعرض له رئيس للوزراء . . فوضع تقريراً يقول إن التحليل الكمبيوتري لم يسفر عن أي نتائج قاطعة بأن من كان مع العاني هو محمد عطا . . وأن فحص سجلات تأشيرات الدخول الممنوحة برهن على أن السلطات التشيكية لم تمنح شخصاً باسم محمد عطا أي تأشيرة لدخول البلاد . . ثم إن فحص سجلات أسماء المسافرين على شركات الطيران التي وصلت إلى براج أثبت أنه ليس بينهم أي شخص بهذا الاسم .

ماذا حدث بالضبط؟! :

ونظراً لأهمية المسألة سياسياً فقد عادت واشنطن ولندن إلى الاتصال برئيس الوزراء التشيكي زيمن لسؤاله عما يحدث حقاً . وطلب رئيس الوزراء إمهاله بعض

الـوقت للـتحقق مـن الأمـر . وبعـدها جاءت اللحظة التي انتظرها روزيك . . فقد توجه إليه رئيس الوزراء - في مقابلة مباشرة - برجاء شخصي أن يعيد التحقيق في الأمـر . ورد روزيـك بهـذه الجملـة هـل تريدني أن أفبرك معلومات؟ إذا كنت قد تـسرعت بـإبلاغ واشـنطن ولـندن بأخـبار غـير مـؤكدة فعلـيك وحدك أن تتحمل مسؤولية ذلك .

حكاية مثل الزئبق :

وهكـذا تدحـرجت قصة لقاء العاني - عطا إلى بر الظلام كما يقولون . إذ هل التقـيا بالفعل؟ هل لدى روزيك دليل يريد اظهاره بسبب سخونة المعارك الداخلية في بـراج؟ أم تـراهما لم يلتقـيا مـن الأصـل؟ وأن روزيـك متمـسك فحسب بامانة مـسؤوليته . . غير راغب في تحويل القضية إلى سند يدعم طموحات زيمن السياسية ورغـبة في إرضاء من يدعمونه في لندن؟ اغلب الظن أن هذه الأسئلة ستبقى معلقة لـبعض الـوقت حتـى تنقـشع سـحب خلافات براج . . ومن يدري؟ فلعل التغيير المأمـول في بغـداد يـؤدي إلى إخراج أوراق المخابرات العراقية إلى العلن ليجد فيها العـالم محـضر جلـسات العانـي - عطـا . . أو محاضـر جلسات لمستويات أعلى من الجانبين معاً .